مركز تكامل للدراسات والأبحاث

قراءة في كتاب

أصداء الذات.. حسن طارق يفكّك الوطنية المغربية

سفيان جرضان

حاصل على الدكتوراه، تخصص القانون الدستوري وعلم السياسة

كلية الحقوق السويسي، جامعة محمد الخامس، الرباط.

08 يناير 2024

ALL RIGHTS RESERVED

جميع الحقوق محفوظة

ظلت العلاقة بين الهوية والانتماء من بين الاهتمامات القوية التي شغلت بال المفكرين والباحثين في المجال الفلسفي وحقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، بل إن حاجة الأفراد إلى الانتماء لجماعة معينة لهو أكبر دليل على أن الترابط الذي تحدثه انتماءاتهم بين الدين واللغة والمعتقدات تولّد عندهم الإحساس بالفخر والشعور بالأمان والاستعلاء، وإذا كان هذا العنصر الأخير قد شكّل العنصر الحاسم الذي قدّمه "أمين معلوف" كمعيار لتحديد الهوية، إذ بالنسبة إليه "يوجد في كل العصور أناس يعتبرون أن هناك انتماءً واحدا مسيطرا يفوق كل الانتماءات الأخرى وفي كل الظروف"[1]، هذا الانتماء الذي نسميه الهوية، هو الوطن بالنسبة للبعض وهو الدين عند البعض الآخر وهو أيضا اللغة والتقاليد، فإنه من جهة أخرى "تتأسس الهوية الجماعية لدى المجموعات الصغيرة التي تمتلك بنى لاتخاذ القرار على المكانة السياسية في المقام الأول، ويقتضي ذلك نسقا معينا من الواجبات، والحقوق والامتيازات"[2]. ومن تم أمكن القول إننا أمام مجموعة من المكونات الانتمائية التي بواسطتها يرى الأفراد أنفسهم.

يحرص "وجيه كوثراني" على ربط الهوية بالمعطى التاريخي وفي كونها نتاج تاريخي، إن التاريخ هنا بالنسبة له ليس هو الماضي فحسب، بل هو مسار زمني أي أنه ممتد. لذلك فالهوية هنا ليست بثابتة تحت عناوين مجرّدة كالتراث أو الحضارة أو الدين، وضعت في سياق زمني محدد، وإنما تدخل في خانة التجلّيات والتّعبيرات التي تتم بواسطة الأفكار والممارسة والمعيش[3].

لا ينفصل البحث عن الهوية في السياق المغربي عن مسألة تكوّن الوطنية، التي تتأسس على الجمع بين الهوية والخصوصية الثقافية والكثافة التاريخية للأحداث. إنها وطنية تتجاوز الهوية والدّين، وتقترن ولادتها باللحظة التي تشكّلت فيها الدولة المغربية، ذلك أن استخلاص عناصرها والبحث في مسار تطورها هو عين ما أراد أن يصل إليه حسن طارق انطلاقا من ثلاث فصول ضمن مؤلفه الموسوم بـ"الوطنية المغربية: تحوّلات الأمة والهوية"، ونحن ضمن هذه السطور سنحاول استعراض أهم الأفكار التي ضمنّها الكتاب ومناقشة الأطروحات الواردة ضمنه وفق المحاور الآتية.

أولا: المراحل التاريخية لبروز الوطنية المغربية

لا يمكن النظر إلى مسار الوطنية المغربية بدون الرجوع إلى مسارات بعينها، والحال أن هذه المسارات تتأسس على مرجعيات تفاعلية تستبطن العلاقة بين الهوية في ارتباطها بتكون الدولة والإسلام والمخاضات التاريخية التي عرفتها.

يقف حسن طارق وهو يناقش بعمق سياقات تأسيس الوطنية المغربية مع الإرهاصات الأولى للحظة الانتقال من الشعور الوطني إلى الوطنية، وينطلق من طرح جرمان عيّاش بخصوص البحث عن جذور للشعور الوطني في الذاكرة التاريخية المغربية، مذكرا بأن الهجمة الأوروبيّة على المغرب إبان القرن الخامس عشر وانتفاضة المغاربة

[1]– أمين معلوف، الهويات القاتلة: قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة نبيل محسن، ط1(دمشق: ورد للطابعة والنشر والتوزيع، 1999)، ص 16.

[2]– حسن رشيق، الهويات الناعمة والهويات الخشنة، "مجلة إنسانيات، العدد 47-48، يناير، يونيو2010"، ص 116.

[3]– وجيه كوثراني وآخرون، الهوية بين الذاكرة والتاريخ، في الدولة وسؤال الهوية في المناطق المغاربية، (منشورات مركز تكامل للدراسات الأبحاث، 2021)، ص 5.

ضدّها يمكن اعتبارها تعبير عن "وجود حركة وطنيّة واضحة المعالم"[4]، إذ يبدو هذا الحدث الاستعماري بمثابة الامتحان الأول للوجود المغربي: أمة ودولة ومجتمعا[5]. ووفقا لصاحب "العودة إلى الثقافة" فالشّعور الوطني بالبنسة للمؤرّخ لا يتحدّد بالشكل الذي يحسّونه الأفراد وإنما بمدى تأثيره على مجموع سكّان بلد ما لتحفيزهم على الانتفاضة[6]، وهذا بالذات ما جعل سعيد بنسعيد العلوي حسب طارق يجنح إلى اعتبار أن الشعور الوطني على مرّ العصور عبّر عن نفسه من خلال وجود مجتمع عربي متامسك منذ حكم المرابطين والموحّدين والمرنيّين والسّعديّين والعلويّين.

الشعور الوطني عند مصطفى بوعزبز كما يبيّنه الكاتب انبنى على أساس الانتقال من "الوطن الروحي" إلى "الوطن الترابي"، حيث استيلاء فرنسا على الجزائر سنة 1830، سيعجّل بتفكير المغاربة وفق منطق الحدود القارّة للحد من توسّع "دار الكفر"[7]. نفسه العروي يطرح فكرة مفادها أن جهاد أهل البوادي والتوجّه الإصلاحي الغريزي ومحاولة ردّ الاحتلال الحفيظيّة هي مكوّنات أساسية لإرهاصات الشعور الوطني يصفها ب "ماقبل الوطنية" التي ستتوج ب"وطنية" نشأت وترعرعت تحت إطار الإدارة الاستعمارية[8].

يستعين الكاتب بأطروحة كل من العروي والجابري لتبرير نشأة الوطنية المغربية من رحم الدّولة والدين. حيث بالنسبة لعبد الله العروي "فالوطنية ولدت من رحم المخزن نفسه وأخذت توجّها سلفيّا، وفق التطور الذي عرفته البنيات الاجتماعية انطلاقا من سنة 1830، وهو تطوّر تمخّضت عنه ثلاث نتائج رئيسيّة: نزوع المتعاقدين على البيعة إلى الفردانيّة، واحتكار العلماء صيغة المنظومة الفكرية للمجتمع، وأخيرا إشكالية البوادي التي لم يكتب للمخزن تأطيرها"[9].

وإلى جانب إرجاع بروز الوطنية إلى الهوية الترابية وعراقة الدولة المغربية، يقدم محمد عابد الجابري أيضا فكرة يربط من خلالها جذور الهوية المغربية بتشكّل الوعي بالخصوصية المغربية الذي تأسس منذ قيام الدولة الإدريسية[10].

في المقابل تعتبر السلفية الليبرالية إحدى الأشكال التي ساهمت في بروز الوطنية المغربية ما دامت النخبة النافذة في المجتمع متأثرة بها. ضمن هذا السياق يوظف الكاتب السّجال الدائر بين العروي والجابري عن السلفية الوطنية، فالأول يرى في "حضور المكوّن السّلفي داخل الوطنية المغربيّة، بانتصار المنظومة الإيديولوجية الأكثر نهلا من روح السلفية لارتكازها على مبدأ التّوحيد بين القصر السّلطاني ومؤسّسة القرويّين، وعلى الجمع داخل

---

[4]- حسن طارق ، الوطنية المغربي: تحوّلات الأمة والهوية، (بيروت: المركز الثقافي للكتاب، 2023)، ص 29.

[5]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 32.

[6]- نفس المرجع ص 29.

[7]- حسن طارق نفس المرجع، ص 33.

[8]- نفس المرجع، ص 33.

[9]- نفسه، ص 35.

[10]- ص 39.

تعريفها التّاريخي/ الثّقافي للأمّة بين ما هو سلفي وخزني"[11]. بينما ينبري الثاني إلى التمييز بين لحظتين تاريخيّتين في مسار حضور الإيديولوجيا السّلفية، الأولى باعتبارها في صيغتها الوهابيّة الأولى منذ النّصف الثاني من القرن الثّامن عشر بمثابة الإيديولوجية الرّسمية للدولة، [..] والثانية انطلقت من أخذ مكانة السّلفيّة الوهابيّة منذ بداية الحماية، حيث بزغت سلفيّة جديدة تكتسح السّاحة الفكريّة لتكون الأساس الذي قامت عليه الحركة الوطنية المطالبة بالإصلاح والتّحديث أولاً ثمّ بالاستقلال ثانيا[12].

سمحت عملية التركيز على تشكّل الوطنية المغربية للكاتب بتطوير تحليل نظري شامل يركز فيه على سياقات الإيديولوجيا والتاريخ منطلقا من أسئلة ترنو إلى البحث في تفاعل الوطنية المغربية مع العرض الإيديولوجي القادم من المشرق في بدايات القرن العشرين وعلى الكيفية التي استوعبت بها آثار سياقها التاريخي زمن الحماية.

وبناء على هذه الأسئلة بالأساس يخلص إلى أن الانطلاق من الشعور الديني لبناء وطنية حديثة يعود سببه إلى الظهير البربري "كمرجعيّة أساسية في بناء الوطنية المغربية، وهو ما يميزها عن المشرق وخاصّة الدّول الناشئة على أرضية (سايس بيكو) حيث بقي الدّين الإسلامي قاعدة للتّمايز الاجتماعي الدّاخلي في سياق التّباين الطّائفي الدّيني، حيث تحوّلت العروبة إلى مبدأ فارز للتّمايز الوطني عن المستعمر"[13]. لذلك فإدماج البعد الإسلامي في الوطنية الناشئة حسب الكاتب وظفت فيه السّلفية كوعاء إيديلوجي من أجل تعبئة الشّعور الدّيني لمواجهة التّهديد الهويّاتي لسياسات "الظهير البربري".

وهذه الخلاصة تنطوي على فكرة بروز وطنية مغربية لا تناهض العروبة، ولا تعادي الإسلام غير متأثرة بالشرق، إذ قيامها على مكوّني الهوية والإسلام وعلى مسلّمة الدّولة كعنوان للوجود التّاريخي المستقل، جعلها تنظر إلى الدولة من زاوية الوحدة لا من زاوية التجزئة الاستعمارية كما هو الحال عند الاتجاه القومي على حد قول الكاتب حيث الدّولة أثر سيّء الذّكر للحدث الاستعماري.

ثانيا: الوطنية المغربية.. فكرة احتاجت إلى التنظير

تحوّلت الوطنية المغربية بكثير من الإصرار في أعين الباحثين المغاربة إلى فكرة تحتاج إلى الدرس والتحليل، وهذا بالضبط ما جعل رصانة صاحب الكتاب وسعة معرفته تتجه نحو استحضار المنجز التاريخي والفكري الذي كتب في الموضوع، ومن ثم خصّص الفصل الثاني من الكتاب لمناقشة أعمال كل من عبد الله العروي وبنسعيد العلوي والمصطفى بوعزيز وحسن رشيق وآخرون.

الوطنية موضوعا للمؤرخ كما يصفها الكاتب عندما يقف مع أطروحة العروي في دراسته عن الأصول الوطنية المغربية تبيّن مدى دحض صاحب "الأدلوجة" للأطروحة الاستعمارية القائمة على أنّ البلاد المغربية لم تكن سوى "شتات قبائل مسقلّة"، إذ النظام المغربي كما برز خلال القرن التاسع عشر استند على وجود دولة ومجتمع بكل ما

[11]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 43.

[12]- نفس المرجع، ص 45.

[13]- ص 55.

يعنيه المفهومان، وأنّه داخل هذا النّظام مثّل السلطان رمزا للوحدة وتجسيدا للسلطة ونقطة ارتكاز أساسيّة، وهذا ما سيؤهّله فيما بعد للعب دور مهم على مستوى الأسس الاجتماعيّة للوطنيّة المغربية[14].

ومن وحي هذا الطرح يرى حسن طارق أن استنتاجات العروي بخصوص صياغة ملامح الوطنية المغربية تكمن في ثلاث عناصر: أولى هذه العناصر يجسدها المخزن أي الدولة التقلدية، وثانيها، العلماء الموالين للمخزن كشريحة اجتماعية، وثالثها، مجموع القوالب التّعبيرية، مثل الألفاظ والمفاهيم التي تشكّل رأسمالا خاصّا بالطبقة العالمة المخزنيّة.

وفي العمق إن مصدر الوطنية المغربية ينهل بالأساس من مضمون ثقافي تلازمه مكوّنات الهويّة المغربية، لذلك تبدو هذه الأطروحة أقرب إلى النظر للهوية الجماعية باعتبارها تجميعا للهويات الاجتماعية، حيث لا يتم بناؤها وتفعيلها والحفاظ على استمراريتها إلا من خلال التفاعل الذي يتم داخل مجتمعات الحركات الاجتماعية[15].

إن المضمون الثقافي للوطنية المغربية وفقا لتحليل سعيد بنسعيد العلوي كما أورده الكاتب يكمن في مزاوجة الوطنية المغربية بين المقاومة والنضال السياسي، وكذلك ممارسة التنوير الفكري، [..] وهو ما تجلّى في مختلف الأشكال التّعبيرية الفكرية لعملها من شعر ونثر وخطابة، ومن مقالة صحافيّة وتحليل سياسي وتفسير تاريخي[16].

إن كتاب "النقد الذّاتي" يعتبر نوع من البيان الإيديولوجي الأول للحركة الوطنية[17]، والعروبة هنا بدورها تمثّل عمق المضمون الثقافي للوطنية المغربية[18]. على أن ثوابت ومكونات الهوية المغربية تتمثل في كل من الملكية والإسلام والنسيج الاجتماعي المتماسك[19].

إذا كانت أسئلة المفكر والمؤرخ تنطلق من البحث عمّا كان لتفسير ما هو حديث، فإن الأنتروبولوجي يسعى بدوره إلى تتبع مسارات بعينها وملاحظة الكيفية التي وظفت فيها السياسة والثقافة وممارسات من أجل إضفاء طابع الشرعية على قضايا الوطن والأمة، ومن هذه الزاوية بالذات يبرز الرّهان على الأنتروبولوجي من قبل الكاتب لتعميق النقاش حول الوطنية المغربية.

لذلك يعود بنا صاحب "حقوق الإنسان أفقا للتفكير" إلى الوطنية المغربية كموضوعا للأنتربولوجيا وهذه المرة يفكّك أطروحة حسن رشيق، إذ إن هذا الأخير "يعود إلى تجاربه مع الميدان ليقدّم للقارئ الملاحظة/ المنطلق: القرية الصّغيرة في الأطلس الكبير التي تتحوّل في لحظة من لحظات تطورّها الدّيمغرافي من خلال بناء مسجد وخلق طقس احتفاء جماعي عبارة عن وجبة مقدّسة (المعروف)، إلى جماعة بهويّة جديدة"[20].

---

[14]- عبد الله العروي، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912، ترجمة محمد حاتمي ومحمد جادور. ط1(بيروت:المركز الثقافي العربي، 2016)، ص 168-169.

[15]-Verta Taylor and Nancy Whittier, Analytical Approaches to Social Movements culture: the culture of the Wome's Movement, (Routlegd, 1996), p 172.

[16]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 115.

[17]- نفس المرجع، ص 115.

[18]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 115.

[19]- نفس المرجع، ص 121.

[20]- نفسه، ص 124.

إن العلاقة هنا بين الهوية الجماعية والعمل الجماعي علاقة تبادلية، إذ تبنى الوطنية كنمط للإجماع يمر عبر مجموعة من الأحداث، كيف تأسست في الحالة المغربية؟

وفقا للكاتب، عبر بناء رمزي وظّف فيه الاحتجاج ضدّ "الظهير البربري" واللباس الوطني (الجلبابة و"الرّزة" والعمامة) والاحتفاء بعيد العرش كتعبير عن ترسيخ الروابط بين الوطنيّين والملك وغيرها من الشّعائر الدينية.

لتصبح وفقا لهذا الطرح الوطنيّة "هي مجموع المشاعر والأفعال الهادفة لتحقيق ونشر الأسس السّياسيّة والثّقافيّة المرسّخة لهذا الولاء، وبناء على ذلك يقدّم رشيق ثلاثة تصوّرات حكمت موضوع الوطنية المغربية، التصوّر المتجانس المرتبط بزمن النضال من أجل الاستقلال، والتصوّر النّزاعي من خلال ظهور وطنية شعبوية أو يساريّة ما بين (1960- 1974)، والتصوّر النّقدي الدّاعي إلى بناء أمّة مغربية وفق رؤية تعدّدية من الناحية الثقافية واللغوية"[21].

الانتقال من الأنتروبولجيا إلى السوسيولوجيا لفهم مسار تشكل الوطنية المغربية معناه أن "الهويات الجماعية تجد جذورها في مجتمعات الحركات الاجتماعية وتعبّر عن نفسها من خلال التضامن والمصالح والخبرات المشتركة للأفراد"[22]. فهل يمكن اعتبار الحركة الوطنية حركة اجتماعيّة؟

عند المصطفى بوعزيز تبدو الحركة الوطنية كحركة اجتماعية تبلورت عبر ثلاث محطّات: انتفاضة الدباغين (1873)، ثم الاحتجاج على "الظّهير البربري" (1930)، والمطالبة بالاستقلال ومحاولة إلغاء واقع الدّونية (1944).

ووفقا لإسهامات أخرى يحاجج بها الكاتب تُقارب الوطنية المغربية إما من زاوية "سياق انبثاقها وشروط نجاحها السيّاسي وتبلور مكوّناتها الثّقافية"[23]. أو وفق "فرضية الانتقال المفارق من التّشبيك المحليّ إلى الوطني"[24]، أي اعتبار بروز الوطنية مأتاه المحلي بناء على تكريس الأبعاد المحليّة فرضته المساجد والأندية والجمعيّات.

ثالثا: من هم المغاربة؟

تكمن عبقرية المؤلف في قدرته على طرح السؤال الغائب في زخم الأدبيات التي وظفها في متن كتابه، من خلال نسج العلاقة بين تكوّن الشخصية المغربية والوطنية المغربية، بعبارته، من هم المغاربة؟

تنبع في الحقيقة فكرة الكتابة عن المغاربة[25] نفسها من خلال رسم تصوّر عام عن سمات الشخصية المغربية. وهو يطمح، أي الكاتب إلى تقديم خلاصات عامة لكتابين[26] قريبين من هذا السياق، يسجّل بعض الانطباعات

---

[21]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 132.

[22]- Verta Taylor and Nancy Whittier, op cit, pp 172- 173.

[23]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 145.

[24]- نفس المرجع، ص 147.

[25]- تحضر فكرة الكتابة عن المغاربة حتى في الجنس الأدبي، و"المغاربة" هي أيضا عنوان اختاره الجويطي لإحدى روايته، حيث يروي فيها الكاتب قصة "محمد الغافقي" بطل الرواية وشخصيتها المحورية، وعلاقته بأخيه العسكري ومجالس العميان الذي كان ينظمه حاجب الباشا، حيث تبرز تيمة العمى داخل الرواية الذي يجسدها بطل الرواية ومن خلال أيضا الأحداث التي رافقته من غدر وخيانة... أنظر: عبد الكريم الجويطي،المغاربة، ط1(بيروت: المركز الثقافي العربي، 2016).

[26]- الكتابين الذي اعتمد عليهم الكاتب ضمن هذا السياق هما:

- يحي ابن سليمان، نحن المغاربة: مشاكل النموّ بين التّقليد والتّجديد، ط1 (الدار البيضاء: شركة النّشر والتّوزيع المدارس، 1985).

- عبد الكريم غلاّب، الشّخصيّة: شخصيّة المغربية نموذجا، ط 1(الرباط: دار أبي رقراق، 2017).

الأساسية التي أُخذت عن السلوك الجماعي للمغاربة والمتمثّلة في كل من "روح التّرحال البدوي، حيث يمثّل أثر الماضي البدوي أحد خصائص العقليّة المغربية [..] وانفتاح الشخصية المغربيّة التي تتقبّل المسالم من الأفكار والسّلوكات والمعاملات [..] حيث رغم وضوح ظاهرة الإطناب والتضخّم في المظاهر والكلام لدى الشخصية المغربية [..] إلا إنها تتميز بفضائل الصّبر والشّجاعة والضّيافة والتشبّث بالقانون والمساطر"[27].

إن شخصية الإنسان المغربي "شخصية مناضلة"[28] اكتسبها بناء على الطابع الجهادي الذي ورثه عن أجداده الذين واجهوا الهجمات الذين تعرّضوا لها إبان القرن الخامس عشر من قبل البرتغاليّين والإنجليز وأيضا أثناء مقاومتهم للاستعمار باستبسال.

ومع ذلك، لا يكتفي صاحب الكتاب بهذا الطرح عندما يبحث في سمات الشّخصية المغربية وإنما يقلب المعادلة لتصبح اللاّ مسؤولية هي السمة الغالبة للمغربي، ولعبد الكريم الخطيبي قول بليغ في هذه المسألة يقول على إثره كما ورد في متن الكتاب: "سمة المغربي التنصّل من المسؤولية فهو الذي اكتشف السرعة بكثير من الحيرة – بعد أن كان يترك للشّمس وأوقات الصّلاة عبء تنظيم سير الأنشطة وأوقات الفراغ، وكأن الوقت يمنح للإنسان وينتزع منه عى نحو تعاقب الضّوء والعتمة- يجري لكي يصل متأخرا، وهو يصل دائما كذلك، والخطأ في ذلك يعود للآخر! إذ إنه يتنصّل من الخطأ بتفويض سحري"[29].

رابعا: أخذ سياقات تحوّل الوطنية المغربية على محمل الجد

يكشف النقاش الذي طرحه المؤلف في الفصل الثالث من الكتاب عن التطور الذي طرأ على الوطنية المغربية في اليوم الموالي للاستقلال، وعن التفاعل الذي تمّ بين مفاهيم ونماذج حوّلت الكيفية التي نتناول بها موضوع الوطنية المغربية إلى بناء سردية جديدة عن تمثلاتنا للهوية المغربية تكشف قدرة خوض غمار الحديث عن تحوّل من الوطنية المغربية إلى الأمة المغربية.

لكن كيف تمّ هذا التحوّل؟ يجيب الكاتب بطريقة غير مباشرة على أن الوطنية المغربية قبل الاستقلال، إذا كانت الحركة الوطنية تشكّل إحدى أهم عناصرها، فالصّراع الذي وقع بين هذه الأخيرة عندما أسّست أحزاب سياسية وبين المؤسسة الملكية، ساعد على تشكّل دولة وطنية كُرّست مع دستور 1962، وهذا التكريس بالذات هو ما ساهم حسب المؤلف في إقبار مخاطر تحزيب الوطنيّة وتحويلها إلى موضوع للاحتراب الدّاخلي.

لذلك يعترف حسن طارق، بأن الانتقال من الحركة الوطنيّة إلى الدّولة الوطنيّة، ومن الوطن إلى الأمّة يأتي كنتاج لـ"لقاءً تاريخياً بين الوطنيّة المتبلورة منذ الثّلاثينيّات وبين السّيادة المجسّدة في الإعلان عن الاستقلال، ولأن الأمة ظلّت دائما تمثّل تطلّع الوطنية المغربيّة نحو السّيادة، ولأنّ هذه الدّولة المستقلّة كانت تعبيرا عن السّيادة المأمولة والمسترجعة، فقد مثّلت في نفس الآن لحظة تكثيف لانبثاق الأمّة"[30].

---

[27]- حسن طارق، نفس المرجع ،صفحات 155-156-157.

[28]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 158.

[29]- نفسه، ص 163.

[30]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 169.

ولتفسير الشكل الذي استقر عليه مفهوم الأمة بعد دسترته يجنح الكاتب إلى إبراز الدور الذي لعبته مؤسسات الدولة من خلال بلورة مجموعة من الرّموز الوطنيّة عبر المدرسة والإعلام والمؤسات السياسية التي ستصبح فيما بعد، الصّانع الرئيسي للهويّة الجماعية، وشيئا فشيئا سيغدو تمثّل فكرة الوطن رديفا لفكرة الولاء للدّولة. ومن هذه الزاوية بالذات يعيد الباحث في العلوم السياسية تشريح مفهوم الأمة بناء على الخلاصة التي استنتجها ناصيف نصّار، والتي يقول من خلالها: "فالمملكة لا تنظر إلى نفسها كجزء من أمّة إسلامية، ولا تذكر في دستورها عبارة أمّة إسلامية، فالدّستور يتحدّث عن الأمّة بمعنى الأمّة المغربية، لكن للدّين دور في تشكيل هذه الأمّة يتداخل مع دور الدّولة والنظام الملكي"[31].

يطرح الكتاب واحدةً من بين أبرز الأفكار المهمة ذات الصّلة بالإشكالات التي تثيرها الادعاءات الهويّاتية، حيث "أكدت الاقترابات الحديثة لقضايا الهوية على ما يعتري التجربة الجماعية والشخصية معاً من نقائص وتناقضات وتشظٍّ، كما كشفت عن العلاقة المعقدة بين مشروعات الهوية، والمطالب الاجتماعية والإمكانات الشخصية"[32]. لكن التفاعل مع الحالة المغربية من داخل هذه الأطروحة يبيّن أن التّحدّي الهويّاتي لم يثر أي إشكال في علاقاته مع مفهوم الأمة المغربية، ومع الخطاب الذي تبنّته الحركة الثقافية الأمازيغية.

بشكل أكثر وضوحا، يحاجج حسن طارق في أن الإدّعاء الهويّاتي الذي يحرّك الحركة الثقافية الأمازيغية باعتباره ترافع من أجل إعاد ترتيب عناصر الهويّة الوطنية ظل دائماً تحت سقف الأمّة وفي إطار الشّخصية المغربيّة والكيان المغربي، إنه تفاعل يعبّر حسبه عن انطلاق ديناميّة إعادة التّعريف الجماعي للأمة، سبقه حدث المسيرة الخضراء بوصفه ارتعاشة وطنية ثانية عاشها المغاربة[33]، وباعتباره أيضا يؤشر على اندماج غالبية القوى السياسية المنبثقة من العائلة الوطنيّة ضمن مشروع الأمّة كما كانت تقوده الملكيّة منذ الاستقلال من خلال الدّولة الوطنيّة الحديثة[34].

يطرح الكاتب ما يسميه بـ"الجدل المتجدد للهوية"، وضمن هذا الطرح يقدم قراءة عن حالتي "التيّار الموري" و"تامغربيت". بالنسبة للتيّار "الموري" الذي ظهر أول مرة سنة 2018 على فضاء الفايسبوك والذي سيقدّم نفسه فيما بعد من خلال بيانه التأسيسي على أنه مبادرة حرّة تلقائيّة تعنى بتعزيز الثّقافة والتّاريخ والهويّة في نفوس الشباب المغربي، سينتصر للمرجعيّة القوميّة الموريّة الأمازيغيّة بتبنّيه الدّفاع عن اللغة الأمازيغية باعتبارها اللّغة الأم المركزية، وهذا بحد ذاته حسب الكاتب يفتح إمكانية سبل تجاوز الأمة نحو القوميّة.

بيد أن المأزق التي سقطت فيه "تامغربيت" بدوره لا يعدو أن يكون سوى إغراء في العنوان وتشّتت في المضامين، إذ إنها تحضر في الفضاء العمومي كفكرة سائلة، وفي سجلّ المقارنة بين الاتّجاهين عبر عمل تفكيكي عميق يدعو

---

[31]- ناصيف نصّار، تصوّرات الأمة المعاصرة: دراسة تحليليّة لمفاهيم الأمّة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، ط3(بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 442.

[32]- Calhoun Craig, Social Theory and the poltics of Identity, (Oxford:Blackwell, 1994), pp 12- 14.

[33]- وصف أطلقه عبد الله ساعف، ووظفه صاحب الكتاب، أنظر، حسن طارق، نفس المرجع، ص 188.

[34]- حسم طارق نفس المرجع ص 192.

الكاتب إلى ما يسميه بـ" الهويّة السعيدة، هوية لاتنهض أساسا وحصريّاً على مطلب الاعتراف [..] بل تتحوّل إلى مجرّد احتفاء بالهويّة كمعيش يومي"[35].

جزء آخر من الأبعاد التي طرحها الكتاب عن مسألة الهوية وتدبير سياسات الانتماء، تعبّر بشكل كبير على أن انبثاق الهويّة الوطنية من رحم ثلاث تعريفات "التّعريف التاريخي للأمّة (العراقة، القدم الوحدة)، والتّعريف الثقافي والرمزي والسّياسي (الإسلام، العربية، الملكيّة)، والتّعريف التّرابي (الأرض والمجال)"[36]، نهض بالأساس على مركزية الدّولة باعتبارها الأكثر حضورا في التّاريخ والحاملة أكبر لعراقة الشّخصية المغربيّة، ومن خلال أيضا رمز الملكيّة باحسبانها الأكثر تجسيدا للأمة الموحّدة.

لكن النتيجة التي تظل على إثرها البنى الاجتماعية مؤثرة في الذات، حيث تبدو كتعبير متعدد الصور يقوم بأدوار اجتماعية لأن التوقعات ترتبط بمواقع الفرد في شبكات علاقات ما، تصبح الهويات هي توقعات الأدوار التي يضفيها الفرد على نفسه[37]. ولأن هذا التفسير لا يمكن الاستكانة عليه، يماثل طارق بين رياضة ترويض الفهد ومسألة الهوية كما وظفها أمين معلوف في كتابه "الهويات القاتلة، حيث تصبح هنا الدّولة بعبارة المؤلف مروّضة لفهود الهويّة عبر سلسلة السياسات العمومية والاقتراحات العمليّة.

إضافة إلى هذا التحليل، يدعو صاحب الكتاب إلى إحياء الإنسية المغربية كما دعا إليها علاّل الفاسي، إنسية تقوم على "القدرة على النّفاذ إلى العمق الإنساني في الرؤية للطّبيعة والحياة، تستند على نخبة رائدة وملهمة ومتوثّبة، وتأخذ بعين الاعتبار التّفاعل بين الفنّ والفكر في صورة اتّحاد مدافع عن الجمال"[38]، ذلك أن تجاوز الوطنيّة المغربية لصالح المواطنة من وجهة نظر الكاتب لا تبدو فكرة مقبولة ومعقولة، وتبرير هذا الطرح يرتبط عنده في " أن الوطنيّة المغربيّة كانت في الواقع مدخلا للحداثة السياسية باعتبارها شكل حديث للاجتماع السّياسي ولبناء الجماعة السّياسيّة المدنيّة، ولأنها كانت حاملة لفكرة التّحرّر فقد يسّرت استنبات قيمة الحريّة فيما بعد ونقلها من دائرة الجماعة إلى مربّع الفرد، ولعلّ الوطنيّة في أجيالها الأولى كانت هي الشّكل الجنيني لتبلور المواطنة كالتزام اتّجاه المشترك وكواجب أخلاقي في اتّجاه المجموعة الوطنيّة"[39].

---

[35]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 217.

[36]- نفس المرجع، ص 219.

[37]- Sheldon Stryker and Peter Bruke, the past, present and Future of an Identity Theory, (Social psychology Quarterly, vol. 63, no 4, 2000), p 286.

[38]- حسن طارق، نفس المرجع، ص 236.

[39]- نفسه، ص 248.